بحوث ودراسات

التجديد

المجلد 20، العدد 40 (2016/1438) 135-167
ISSN 1823-1926 (Print)
حقوق الطبع محفوظة لـ IIUM Press
الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

خُطَبُ الحجَّاج بن يوسف الثقفيِّ الوعظيَّة: دراسةٌ في ضوءِ نظريَّة الاتِّصال الأدبيِّ

×ajjÉj bin YËsuf's Sermons: A Study in the Light of Literary Communication Theory

Ceramah-Ceramah ×ajjÉj bin YËsuf*: Suatu Kajian Menurut Teori Komunikasi Sastera*

محمد أرشد الحسن*

مستخلص البحث

اشتُهر الحجاج بن يوسف الثقفي (ت95هـ) بخطابته السياسية كما كان اشتُهر بسطوته وشدَّة حُكمه وحدَّة مزاجه، وقد اهتم تاريخ الإسلام السياسي بعامة وتاريخ بني أمية بخاصة بخطبه السياسية كثيرًا، لكن الاهتمام ببلاغة خُطَبِهِ الوعظية رغم أهميتها التي لا تقلُّ عن أهمية خُطَبِهِ السياسية من منظور تاريخي واجتماعي وديني ونفسي وأدبي، ومن ثم اختيرت هذه الخطب الوعظية موضوعًا لهذا البحث، ودُرست في ضوء نظرية الاتصال الأدبي؛ إذ إنها تُعدُّ أشمل نظرية أدبية نسبيًا؛ لأنها تهتمُّ بالمبدع والنَّصِّ والمتلقي على حدٍّ سواء. وقد قُسِّم البحث إلى خمسة محاور وفق نظرية الاتصال الأدبي؛ بداية بالمبدع والرؤية التكوينية، ومرورًا بالنص والخاصية النوعية، والوسيلة الاتصالية، والمتلقي وإستراتيجية القراءة، وانتهاءً بالارتداد العكسي. أما أهم النتائج التي توصَّل إليها الباحث فمنها أن خُطَبَ الحجَّاج الوعظية مليئة بالعاطفة الدينية الجياشة، والروحية الإسلامية الخالصة، كما أنها تُمثِّل أعلى درجات المستوى البلاغي في فنِّ الخطابة، ومن المُتوقَّع أن هذا البحث سيفيد منه الباحثون والدارسون الذين يشغلون أنفسهم في مضمار الخطابة، ولا سيما الخطابة الدينية

* طالب دكتوراه في تخصص الأدب العربي؛ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، وأستاذ مساعد في قسم العربية في جامعة داكا، بنجلادش. alfarazdaq@gmail.com / mahassan@du.ac.bd

في عصر بني أمية.

الكلمات الأساسية: الحجاج الثقفي، الخطب، الوعظ، دراسة، نظرية الاتصال الأدبي.

Abstract

Al-Hajjaj ibn Yusuf (95AH) was famous with his political speeches, Ascendancy, political influence and the severity of his temperament. He was regarded as one of the famous speakers of the period Umayyad era. For this reason, so many scholars have tended to his political speeches. Perhaps may be because it focuses on the history of Islamic politics in general and the history of the Umayyad in particular, with many political speeches. Hence there was little attention to the later because of his eloquence in use of words and his position as regards public speaking. So his sermons are important if they are looked at from historical, social, religious, psychological and literary perspectives in an equal manner. It is from this angle that a sermon of the pilgrims is chosen as a topic for this research. This study investigates his sermons and speeches in the light of literary communication theory, as it is considered the most comprehensive, relative and literary theory because they are indifferent about originative and received text in equal manner. So, the research is divided into five discussions according to the literary communication theory, beginning with originative and formative vision, passing through the text and quality property, and the means of communication, that is received and the strategy of reading, ending with a summary . The most important results realized by the researcher, includes the oratory style of motivational speeches filled with religious pilgrims' effusive emotion, and Islamic spirituality of Hajjaj bn Yusuf. It also represents the highest degree of rhetorical level in the art of public speaking. It is anticipated that this study will benefit researchers, and scholars who specialize on the field of rhetoric, particularly religious rhetoric in the era of the Umayyad.

Key words: Al-Hajjaj ibn Yusuf, sermons, preaching, study, literary communication theory.

Abstrak

Al-Hajjaj ibn Yusuf (95AH) terkenal dengan pidato politiknya, di samping pengaruh politik dan kekerasan perangainya. Al-Hajjaj dianggap sebagai salah seorang penceramah terkenal pada era Bani Umayyah. Atas sebab ini, banyak pakar cenderung untuk mengkaji ucapan politiknya. Mungkin kerana ia memberi tumpuan kepada sejarah politik Islam secara amnya dan sejarah Umayyah khususnya. Tumpuan perhatian dari ceramah al-Hajjaj kerana kefasihan dalam penggunaan perkataan-perkataan dan kedudukannya berkenaan pengucapan awam. Ceramah al-Hajjaj adalah penting jika mereka melihat dari perspektif sejarah, sosial, agama, psikologi dan sastera dengan cara yang sama. Dari sudut ini yang ceramah yang berisi mauizah dipilih sebagai topik untuk kajian ini. Kajian ini membahas ceramah beliau dalam sudut teori komunikasi sastera, kerana ia dianggap teori yang paling menyeluruh, relatif dan bernilai sastera. Jadi, kajian ini dibahagikan kepada lima perbincangan mengikut teori komunikasi sastera, bermula dengan yg memulakan dan visi formatif, melalui bahan teks dan kualiti, dan kajian

komunikasi, strategi membaca teks, dan ditutup dengan ringkasan. Keputusan yang paling penting disedari oleh penyelidik, termasuk gaya pidato ucapan motivasi dipenuhi dengan emosi effusive keagamaan, kerohanian Islam dari Hajjaj bin Yusuf, ia juga mewakili rasa tahap retorik dalam seni pengucapan awam. Dijangka bahawa kajian ini akan memberi manfaat kepada penyelidik dan ulama yang pakar di bidang retorik, terutamanya retorik agama di era dinasti Umayyah.

Kata kunci: Al-Hajjaj ibn Yusuf, khutbah, dakwah, kajian, teori komunikasi sastera.

مقدمة

كانت الخطابة ما قبل الإسلام سمة من سمات سادة العرب وكُبرائهم؛ لذا "كانت تقترن بها الحكمة والشرف والرياسة"،[1] وبالمثل كان ميدان الخطباء أوسع من ميدان الشعراء؛ إذ إن الخطباء كانوا منفردين بالوفادة على الملوك للنصح والإرشاد وإلقاء خُطَبِ الإملاك والزواج والدعوة إلى السلم والهدنة بين القبائل المتضاربة المتحاربة، فضلاً عنه مشاركتهم الشعراء في التفاخر والتنافر والحض على القتال،[2] وعلى أي حال ازدهر هذا الفن – الذي كان من لوازم السيادة – في العصر الأموي لأسباب سياسية ودينية وعقلية، فقد اتخذ العرب الخطابة أداةً لهم حينئذ "للظفَر في آرائهم السياسية، والانتصار في مجادلاتهم المذهبية، وعولوا عليها في قصصهم ومواعظهم، وفي وفادتهم على الخلفاء والولاة"،[3] وقد نتج عن ذلك أنْ تفرَّعت الخطابة إلى ثلاثة فروع رئيسة؛ هي: الخطابة السياسية، وخطابة المحافل، والخطابة الدينية، وكان البُعْدُ الدينيُّ القاسمَ المشتركَ بين هذه الفروع، فلا خطبة سياسية أو محفلية أو مذهبية إلا تتزيَّن بزينة الديانة، ومن فروع الخطبةِ الدينية الخطبةُ الوعظية.

وقد اختار الباحث شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي لدراسة خُطبه الوعظية رغم

---

[1] ضيف، شوقي، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، (القاهرة: دار المعارف، ط9، 1947)، ص28.

[2] المرجع نفسه، ص29.

[3] المرجع نفسه، ص67.

اشتهاره بخُطبه السياسية،[1] ذلك أن خُطبه الوعظية لم تحظَ باهتمام الباحثين والدارسين، في مقابل اهتمامهم بمثيلاتها لدى: عمر بن عبد العزيز (ت720م) – إذ كان "أخطب الخلفاء في هذا الباب"[2] – والحسن البصري (ت728م)، وواصل ابن عطاء (ت748م)، ومالك بن دينار (ت748م)، وغيرهم، وطريف أن الحجَّاج رغم ما عُرف عنه من تأثير في سامعي خُطبه السياسية كانت لديه قدرة فائقة على إحداث مثل هذا التأثير من خلال خُطبه الوعظية، ومن ثم اختار الباحث نظرية الاتصال الأدبي؛ لمعالجة خُطَبِ الحجَّاج الوعظية؛ إذ هي نظرية تأويلية شمولية جديدة.

تعريف بنظرية الاتصال الأدبي

نظرية الاتصال الأدبي نظرية تأويلية جديدة أخرجها إلى النور الأستاذ الدكتور مراد عبد الرحمن مبروك،[3] وهي نظرية أدبية شمولية تُعالج النص الأدبي – شعرًا كان أم نثرًا – عبر خمسة محاور رئيسة؛ هي: المبدع والرؤية التكوينية، والنص والخاصية النوعية، والوسيلة الاتصالية، والمتلقي وإستراتيجية الاتصال، والارتداد العكسي.[4]

ورغم أن نظرية الاتصال الأدبي استمدَّت بعض الأفكار والرؤى من نظرية التلقي الآزرية[5]؛ أضافت ثلاثة محاور قد ميزتها من نظرية التلقي الآزرية جليا؛ هي: (1) بُعْدُ

---

[1] كان زياد بن أبيه والحجاجالثقفي أكثر شهرة بالخطب السياسية في الحزب الأموي على الإطلاق.
يُنظر: الفاخوري، حنا، **تاريخ الأدب العربي**، (بيروت: المكتبة البولسية، د.ت)، ص319.

[2] ضيف، **الفن ومذاهبه**، ص74.

[3] منظّر وناقد، مصري الجنسية، من مواليد 1959، يعمل حاليا أستاذًا للنقد الأدبي والنظرية في جامعة الملك عبد العزيز، جدة، وله كُتُبٌ عدة فيما يتعلق بالنظرية والنقد؛ نُشرت في: مصر، ولبنان، والسعودية.

[4] مبروك، مراد عبد الرحمن، وعبد الله، رضوان منيسي، وضباب، منضور محسن، **نظرية الاتصال الأدبي بين التنظير والتطبيق**، (جدة: مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز، 2013)، ص9.

[5] لمزيد من المعلومات حول نظرية التلقي عند آيزر؛ يُنظر: هولب، روبرت، **نظرية التلقي**، ترجمة: د. عز الدين إسماعيل، (جدة: النادي الأدبي الثقافي، 1994)، ص199 وما بعدها.

المبدع أو المؤلف أو مُنتج النص الذي أهمله جُلُّ النظرات المتصلة بالتلقي، فترتب عليه أن ظلت تلك النظريات غير مكتملة، (2) وبُعْدُ الوسيلة الاتصالية التي تشتمل على قنوات الاتصال كلها التي تساعد في توصيل الرسالة النصية من المرسل (المبدع) إلى المتلقي سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة أم إلكترونية أم سمعية أم بصرية، (3) والارتداد العكسي (التأثير ورد الفعل) الذي يُولّد النصوص النقدية أو الإبداعية أو المرتدة،[1] وستتضح خمسة المحاور هذه أكثر عند تطبيقها على خُطَبِ الحجَّاج الوعظية.

1. المبدع والرؤية التكوينية

المبدع والرؤية التكوينية أولُ محاور نظرية الاتصال الأدبي، وأسبقيته لأن المبدع أو المؤلف أو مُنتِج النص هو مَنْ يتولَّد فيه النص، فتجاهُل مُولّد النص يؤدي إلى تجاهُل المكونات الجنينية للنص، ومن ثم يجدر بأن يُبدأ به لتُغطي الدراسة أبعاد النص كلها من ألفه إلى يائه؛ بهدف الوصول إلى النتائج الصحيحة، أما الرؤية التكوينية فتشتمل بعامة على مكونات خمسة؛ هي: المكون الاجتماعي، والمكون الثقافي، والمكون الحضاري، والمكون الديني، والمكون النفسي، ولا يُعنى بالضرورة أن هذه المكونات تصدق على كلِّ نصٍّ دائمًا وسواءً بسواء، وإنما تتفاوت في النص الواحد حضورًا وغيابًا وتأثيرًا، كما هي الحال في خُطَبِ الحجاج الوعظية، فقد بدا للباحث أن المكونات الاجتماعي والثقافي والديني أثَّرت في تكوينها مباشرًا؛ لذا تناولها بالبحث من دون غيرها.

1. 1. المكوِّن الاجتماعي:

للتكوين الاجتماعي علاقة مباشرة بصياغة النص، فالحجَّاج – كما ذكر لنا التاريخ – نجله أبواه في قرية بني صخر الواقعة على جبل الهدى، وهو من أشهر جبال الطائف،[2]

---

[1] مبروك، مراد عبد الرحمن، **من صوت الذات إلى سلطة النص قراءة في شعر عبد يغوث الحارثي في ضوء نظرية الاتصال الأدبي**، (نجران: نادي نجران الأدبي الثقافي، 2013)، ص45-48.

[2] الزركلي، خير الدين، **ما رأيت وما سمعت**، (القاهرة: المطبعة العربية ومكتبتها، 1923)، ص40.

وكانت ولادته في أسرة شريفة النسب، كريمة الحسب، معروفة بالثقافة الدينية والوَرع والتقى، وكان والده من أشراف المعلّمين في وقته،[1] وربما كان ذلك لأنه أنفق معظم حياته في الطائف "يُعلّم أبناءها القرآن الكريم وأصول الدين تقرُّبًا إلى الله وطمعًا في مثوبته، دون أن يتخذ ذلك حرفة واكتسابًا"،[2] وقد أيّد ابن خلدون هذا الخبر؛ قال: "ولم يكن تعليمه القرآن على ما هو عليه الأمر هذا العهد من أنه حرفة للمعاش، وإنما على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يُعلّمون كتاب الله وسنة نبيِّه على معنى التبليغ الخبري، لا على وجه التعليم الصناعي"،[3] وكانت أُمُّه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي، وجدُّها – عروة بن مسعود الثقفي – كان أول شهيد مسلم في الطائف،[4] كما يُقال إنه أحد المعنيِّين بقوله ﷻ: ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ (الزخرف: 31)؛[5] لذا كان يُقال للحجَّاج: "ابن عظيم القريتين"، وهذا كلُّه مما يُشير إلى أنه كان من نجباء ثقيف وأشرافهم، وهذه النجابة والشرف أثّرت في نموِّ أخلاقية الحجَّاج حتى إنه كان معروفًا بالكرم والأمانة والصدق واجتناب الخمر والمحرَّمات، وبمحافظته على القيم العربية والإسلامية السائدة في عصره، رغم أن أهل الحجاز في وقته قد شاع فيهم الترف والتنعُّم واللهو والطرب من جرَّاء وراثتهم عن آبائهم الأموال من جهة، وحصولهم من الخلافة الأموية على كمٍّ هائل من الأموال؛ لصرفهم عن الشؤون السياسية من جهة أخرى، ومن ثم كان الحجَّاج آنئذٍ يحثُّ الناس على الهبة والعطاء من أموالهم؛ لكيلا تكون وجوههم

---

[1] التوحيدي، **البصائر والذخائر**، تحقيق: د. وداد القاضي، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ج1، ص34.

[2] العمَد، إحسان صدقي، **الحجاج بن يوسف الثقافي حياته وآراؤه السياسية**، (بيروت: دار الثقافة، 1973)، ص86.

[3] ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، 2001)، ج1، ص48-49.

[4] المبرد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار الفكر، ط3، 1997)، ج2، ص105.

[5] العمَد، **الحجاج بن يوسف**، ص88.

يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة، وقد رُوي عنه قوله: "خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لما بين أيديكم".[1]

يتَّضح مما سبق أن القيم الأخلاقية السائدة في مجتمع الحجاز حينئذ أثَّرت في نشوء الحجَّاج إلى حدٍّ لم يكفَّه عن الترف واللهو والتبذير فحسب، بل جعله يدعو الناس إلى تَرْكِه، وإلى الإنفاق في سبيل الخير بحيث يكونون قد أفلحوا يوم لا ظِلَّ إلا ظلُّه ﷻ، وبالجملة تركت النجابة التي ترعرع عليها الحجَّاج آثارًا في خُلُقِه ومن ثم في خُطَبِه الوعظية التي أحرزت له مكانة شامخة في هذا الباب.

1. 2. المكوِّن الثقافي:

للبُعد الثقافي أهمية كبيرة في تكوين أيِّ نصٍّ من النصوص الأدبية سواء أكان شعرًا أم نثرًا؛ إذ لا بُدَّ من أن يتمثل فيه الجانب الثقافي للمبدع أو المؤلف، فقد يكون المبدع عبَّر عن شيء أو أبدى موقفًا لا يتمثل فيه الرؤى الاجتماعية أو النفسية أو الحضارية، وما إلى ذلك، أما البُعد الثقافي – أو الرؤية الثقافية – فمُلازم النص دائمًا؛ لأن النص ليس إلا وليد ثقافة المبدع، ومن الطبيعي أن يكون البُعد الثقافي مكوِّنًا أساسًا في خُطَبِ الحجَّاج الوعظية، فقد ذكر لنا التاريخ أنه "عاش الشطر الأول من حياته في الطائف، وأمضى فيها بضعًا وعشرين سنة"،[2] وكانت الطائف حينئذ مشهورة بعدة مدارس تُعلِّم القرآن والدين والعربية، وظلَّت "تحتفظ بمكانتها كمركز ثقافي مرموق حتى الدولة العباسية؛ حيث كان بعض الخلفاء العباسيين يُرسلون مواليهم إليها؛ لتقويم ألسنتهم وتعلُّم اللغة العربية الفصيحة هناك"،[3] كما أكَّد التاريخ أن يوسف أبا الحجَّاج كان يُعلِّم الصبيان القرآن والعلوم الدينية، ويُرجَّح أن الحجَّاج أخذ العلوم الدينية عن أبيه، فضلاً عن أنه كان من حفظة القرآن وأشدِّهم قراءة له؛ حتى حسده عمر بن عبد العزيز على

---

[1] صفوت، أحمد زكي، **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت)، ج2، ص301.

[2] العمَد، **الحجاج بن يوسف**، ص93.

[3] المرجع نفسه، ص96.

ذلك،[1] وهذا ما كوَّن في شخصية الحجاج قدرة فائقة على فصاحة الكلام وبلاغة الأسلوب؛ حتى لا مأخذ نحويًّا أوبلاغيًا عليه في خُطَبِه، ومنها قوله مرة: "أيُّها الناس، قد أصبحتم في أجَلٍ منقوص، وعَمَلٍ محفوظ، رُبَّ دائبٍ مضيع، وساعٍ لغيره، والموت في أعناقكم، والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لما بين أيديكم، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء، وكل ما ترونه فإنه ذاهب، هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة، وخزائنهم السائرة بين أيديهم، وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم...".[2]

وربما لا يستعصي على أحدٍ ينطق بالعربية أن يُدرك أبعاد الجمال في هذه الخطبة؛ إذ يجتمع فيها: جزالة الألفاظ، ومتانة الأسلوب، والإيجاز، والتراكيب السهلة، ووضوح المفاد، وصدق المغزى، وديمومة المعنى، ومن البديهي ألا تجتمع هذه الأوصاف كلُّها إلا في: مُتوقِّد الذكاء، راجح العقل، واسع الثقافة، ليصير حقا قول أبي عمرو بن العلاء (ت154هـ) في مكانة الحجَّاج بين فصحاء عصره: "ما رأيت أفصح من الحسن البصري، ومن الحجَّاج"،[3] وقول بعض أئمة التابعين، وهو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام (ت43هـ): "ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضهم من بعض؛ إلا ما كان من الحجاج وإياس بن معاوية؛ إن عقلهما كان يرجح على عقول الناس، فكان بذلك ثاني اثنين فاقا أهل عصرهما في الذكاء".[4]

وكذا كان الحجَّاج متأثرًا بأبيه إلى حدٍّ كبير جدا؛ حتى اقتفى أثره، وبدأ يُعلِّم

---

[1] الحنبلي، **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، (دمشق: المكتبة العربية، 1911)، ج4، ص82.

[2] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص301

[3] الحنبلي، **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، ج4، ص49.

[4] ابن محمود، **الحجاج بن يوسف الثقفي ما له وما عليه**، مراجعة: الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، ص29.

الصبيان القرآن والعلوم الدينية، وإنما كان ذلك "نقلاً لما سمع من الشارع، وتعليمًا لما جهل من الدين على جهة البلاغ"،[1] وربما لذا عدَّه ابن حبيب البغدادي في أشراف المعلمين وفقهاء العرب،[2] فمهنة المعلم أعطته مَلَكة خاصة تمثَّلت في خُطَبِه، ولا سيما الوعظية منها، وهذا ما يلحظه الباحث في جزء الخطبة المتقدِّم، فقد أراد الحجَّاج أن يصرف السامعين عن معاقل الدنيا ومتاهاتها إلى الانغماس في خضمّ الآخرة والاستعداد لها، وضرب لهم مثلاً الأمم السالفة وأقوام الجبابرة التي كانت تعيش على المعمورة أيامًا وأعوامًا، ثم لم تستطع أن تخلد عليها، بل لقيهم الأجل وأوجب لهم الغياب، ولا يخفى أن الناس يتأثرون بالكلام أكثر، حين تُعرض لهم الأمثلة والأخبار التاريخية، وعليه كانت المسحة التعليمية في هذه الخطبة الوعظية آسرة خلابة.

1. 3. المكوِّن الديني:

للمكون الديني أهميته المبرزة في خُطَبِ الحجاج الوعظية، ولا سيما أنه نشأ وترعرع في بيئة دينية نقية غير مشوبة، وقد يرجع هذا إلى دعوة النبي ﷺ لثقيف بالهداية حين حاصر الجيشُ الإسلامي الطائفَ؛ إذ لما طال الحصار قال رجلٌ: "يا رسول الله، ادْعُ على ثقيف"، لكنه ﷺ دعا لهم قائلاً: «**اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيْفًا وآتِ بِهِم**»،[3] وبنتيجة هذا الدعاء أسلم عروة بن مسعود الثقفي – جدُّ الحجَّاج لأُمِّه، وعظيم الطائف – في أثناء الحصار، فقتله قومه، وكان بذا أول شهيد مسلم في الطائف، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: «**مَثَلُ عُرْوَةَ مَثَلُ صَاحِبِ (يس)؛ دَعَا قَوْمَهُ، فَقَتَلُوْهُ**».[4]

---

[1] ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج1، ص48.

[2] ابن حبيب، **كتاب المحبر**، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د.ت)، ص475.

[3] ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج2، ص440؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق: د. رياض عبد الحميد مراد، مراجعة: د. عبد القادر الأرناؤوط / د. بشار عواد معروف، (بيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2010)، ج4، ص438.

[4] ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج2، ص441.

إذن، من الطبيعي أن القبيلة التي دعا لهدايتها النبي ﷺ نفسه، وبدأ تاريخُها الإسلامي بدم شهادة في سبيل إعلاء كلمة الله ﷻ لم تكن كسائر قبائل العرب؛ لذا، شهد لنا التاريخ أن جميع قبائل العرب ارتدَّت إلا قريشًا وثقيفًا،[1] فحسُن إسلام ثقيف وحسُنت كذلك البيئة الدينية المحيطة بالطائف، وفيها نشأ الحجَّاج وترعرع.

وقد ورد في كُتُبِ التاريخ أن الحجَّاج كان قليل الضحك، وإن ضحك أظهر الاستغفار،[2] كما أنه كان بكَّاء بالقرآن حتى تغشى عيناه،[3] وكان يدعو الله ﷻ ويقول: "اللهم أرني الهدى هُدًى فأتَّبعه، وأرني الغيَّ غيا فأجتنبه، ولا تكلني إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيدًا"،[4] وأُثِرَ عنه ترداده قولَهُ ﷻ: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وجِهَادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ**﴾ (التوبة: 24)، وقال البلاذري إنه "كان لا يدع ذلك حتى مات".[5]

بالإضافة إلى أن صُحبة الصحابة ﷺ وكبار التابعين كان لها تأثير عميق في أخلاقية الحجَّاج وفي خُطَبِهِ الوعظية، فقد رُوي أنه اقتدى في حجِّه بعبد الله بن عمر ﷺ، وكذا يُذكر الارتباط الوثيق بينه وبين سعيد بن المسيب (ت 715م) والحسن البصري.

وقد تمثَّل هذا البُعْدُ الديني في خُطَبِ الحجَّاج الوعظية إلى حدٍّ لا تخلو إحداها من أن تحفل بالزهد وتزكية النفس ومراقبتها بشدة، على نحو ما رُوِيَ عنه في إحدى خُطبه

---

[1] ابن محمود، **الحجاج ما له وما عليه**، ص19.

[2] ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، تحقيق: مفيد محمد قميحة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ج3، ص 10.

[3] ابن الجوزي، **مختصر صفة الصفوة**، تحقيق: عصام الدين سيد الصابطي، (القاهرة: دار الحديث، 1992)، ج4، ص151.

[4] البلاذري، **كتاب جمل من أنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار وريضا الزركبي، (بيروت: دار الفكر، 1996)، ج12، ص1245.

[5] المصدر نفسه، ج12، ص1244.

أنه قال: "نِعْمَ: امرؤٌ حاسَبَ نَفْسَهُ، امرؤٌ راقَبَ رَبَّهُ، امرؤٌ زوَّرَ عَمَلَهُ، امرؤٌ فَكَّرَ فيما يقرؤه غدًا في صحيفته ويراه في ميزانه، امرؤٌ كان عِنْدَ هَمِّه آمِرًا، وعِنْدَ هواهُ زاجرًا، امرؤٌ أخَذَ بعنان قَلْبِه كما يأخذ الرجل بخطام جَمَلِه، فإن قاده إلى حقٍّ تَبِعَهُ، وإن قاده إلى معصية الله كَفَّهُ، وإنَّنا والله ما خُلقنا للبقاء، وإنما ننتقل من دارٍ إلى دارٍ".[1]

وخَطَبَ يومًا، فقال: "أيُّها الناس، اقذعوا هذه الأنفس، فإنها أسألُ شيءٍ إذا أُعطيت، وأعصى شيء إذا سُئلت، فرَحِمَ الله امرأ جعل لنفسه خطامًا وزمامًا، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله، فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله".[2]

وهكذا ركَّز الحجَّاج في خُطَبِه على تزكية النفس ومحاسبتها؛ لأنها هي الأمَّارة بالسوء، فإن استطاع أحدٌ أن يحكمها فقد أفلح وتزكى، كقوله ﷻ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: 9-10).

وأعجب من هذا وذاك أن أكبر علماء عصر الحجَّاج وشيخ الواعظين فيه؛ أي الحسن البصري قد دُهش من عُمْقِ تفكير الحجَّاج الديني والروحي، فقال: "لقد وقذتني كلمةٌ سمعتُها من الحجَّاج؛ سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهبت ساعةٌ من عُمُرِه في غير ما خُلِقَ له؛ لجدير أن تطول حسرته"،[3] كما ذكر مالك بن دينار صدق عاطفة الحجَّاج الدينية في خطبه الوعظية وتأثيرها في المتلقي، فقال: "إن الحجاج خطب في يوم جمعة فقال: نِعْمَ: امرؤٌ زوَّد نَفْسَهُ، امرؤٌ اتهم نَفْسَهُ على نَفْسِه، امرؤٌ اتخذ نَفْسَهُ عَدُوَّهُ، امرؤٌ حاسب نَفْسَهُ قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرؤٌ نَظَرَ إلى ميزانه، امرؤٌ نَظَرَ إلى

---

[1] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص302.

[2] المرجع نفسه.

[3] ابن نباته، **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار الفكر العربي، 1964)، ص183.

حسابه... فما زال يقول: امرؤٌ... امرؤٌ... حتى أبكاني".[1]

نعم، أثَّر الدين في نَفْسِ الحجَّاج وخُطَبِه إلى حدٍّ أبكى نفسه وأبكى غيره من السامعين، كما ذكر قتيبة بن مسلم (ت 715م): "خَطَبَنَا الحجَّاج، فذكر القبر، فما زال يقول: إنه بيت الوحدة، إنه بيت الغربة، حتى بكى وبكى من حوله".[2]

2. النص والخاصية النوعية

يحتوي النص والخاصية النوعية وفق نظرية الاتصال الأدبي على ثلاثة محاور؛ هي: الخاصية النصية، والتفاعل النصي، والبنية النصية.

2. 1. الخاصية النصية:

أي أن يكون النص غير واضح في طريقة عَرْضِه، وأن يكون بعضه مألوفًا يقود القارئ إلى ما هو غير مألوف، وأن يكون فيه بعضُ إبهامٍ يوضحه المتلقي، وتكون فيه فجوات يملؤها القارئ الذي يستطيع من خلال قراءة النص أن يُشارك المبدع في إنتاج المعنى، ويعبر عن وجهة نظره؛ معتمدًا على التوجيهات من النص،[3] ومن ثم يكون النص الأدبي قابلاً التأويل، فإن كان النص في غاية الوضوح ولم يترك للقارئ أو المتلقي فجوةً للإملاء أو مجالاً للتأويل أو فرصةً للإنتاج؛ لم يرتقِ إلى الخاصية النصية، وسيبقى عملاً أدبيًا فحسب.

وطالما أن الخطب الوعظية تُلقى لإصلاح المجتمع، وتهدف إلى سرعة التطبيق، يُفترض أن تكون واضحة مفهومة بليغة؛ لذا يتراءى للباحث أن الخاصية النصية لا تنطبق على خُطَبِ الحجاج الوعظية.

2. 2. التفاعل النصي:

أي تفاعُل النص على مستوين: داخلي، وخارجي، أما الداخلي فيحدث من

---

[1] الحنبلي، **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، ج4، ص60.

[2] المصدر نفسه، ج4، ص48.

[3] مبروك، **نظرية الاتصال الأدبي**، ملحق1، ص281.

خلال التناصِّ، وأما الخارجي فيحدث عن طريق تفاعل النص مع القارئ أو المتلقي.[1]

يظهر التناصُّ في خُطَبِ الحجَّاج الوعظية مع آي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف، وآثار الصحابة ﷺ والأبيات الشعرية، على مستويي اللفظ والصورة، من مثل قوله مُذكِّرًا السامعين ببهجة أهل الجنة وسرورهم: "... وأهل الجنة يَنعمون، في روضة يُحبرون..."،[2] فالجملة الأخيرة تتناصُّ مع قوله ﷻ: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ**﴾ (الروم: 15)، وكذا قوله في الخطبة نفسها: "... جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُما وعميانًا..."،[3] فيه تناصٌّ مع قوله ﷻ: ﴿**إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًا وَعُمْيَانًا**﴾ (الفرقان: 73)، وقد وظَّفها أحسن توظيف، فكأنها من إنشائه، وكذا التناصُّ مع قوله ﷻ: ﴿**فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ (فاطر: 5)، في قول الحجاَّج مرة: "... فلا يغرَّنَّكم شاهدُ الدنيا...".[4]

أما التناصِّ مع الحديث النبوي الشريف، فمثاله قول الحجَّاج: "... خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم..."،[5] فهذا من حديثه ﷺ: «**اغْتَنِم خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ... وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ...**».[6]

ومن التناصِّ مع آثار الصحابة ﷺ قوله: "... فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله"؛ هذه العبارة مقتبسة من آثار علي بن أبي طالب ﷺ.[7]

---

[1] المرجع نفسه، ص181.

[2] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص301.

[3] المرجع نفسه.

[4] المرجع نفسه، ص392.

[5] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ص301.

[6] الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، (القاهرة: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ/1997)، كتاب الرقاق، ج4، ص447، رقم الحديث (7927).

[7] ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد إبراهيم، (بغداد: دار الكتاب العربي، 2007)، ج1، ص150

وكذا التناصُّ على مستوى الصورة في قوله: "أيها الناس، أقْعِدُوا هذه الأنفسَ، فإنها أسألُ شيء إذا أُعطيت..."،[1] نجده مع قول أبي ذؤيب الهذلي (ت 26هـ) في عينيَّته المشهورة:

والـــنَّفْسُ رَاغِبَـــةٌ إذَا رَغَّبْتَهَـــا وإذَا تُـــرَدُّ إلى قَلِيْـــلٍ تَقْنَـــعُ[2]

هذه الأمثلة وغيرها تُشير في وضوح إلى الثقافة العربية والإسلامية الواسعة للحجَّاج، أما التفاعل الخارجي فيُقصد به ما حصل من تفاعُل النص مع القارئ؛ إذ كثيراً ما يكون القارئ قد أنتج نصا جديدًا بناءً على ذلك التأثير والتأثر، وهذا ما سيُبحث أخيراً في الكلام على الارتداد العكسي.

2. 3. البنية النصية:

أي التي تشكَّلت من خلال معايشة المبدع أو المؤلف "للواقع معايشة اجتماعية ونفسية"،[3] ومن ثم تنقسم البنية النصية إلى قسمين: البنية السسيونصية، والبنية السيكولونصية.

2. 3. 1. البنية السسيونصية:

نلقاها في معظم الخطب الوعظية للحجاج، فهي بنية أساسية لها؛ لأن خُطَبَهُ موجَّهة إلى المتلقين الضمنيين، بحيث تصدق على كُلِّ مجتمع مُسلِم لا يحول دونه زمان أو مكان، فالصورة الدينية الواقعية للمجتمع المُسلِم كانت ولا تزال واحدة؛ يقلُّ فيها الوعي تجاه الأمور الأخروية مثل البعث والحساب والصراط والجزاء والجنة وجهنم، مما جعل الحجَّاج يُركِّز على هذه الجوانب الدينية الواقعية المتصلة بالمجتمع المُسلِم، ويذكرها في خطبه، كقوله مرة: "أيُّها الناس، قد أصبحتم في أجَلٍ منقوص، وعَمَلٍ محفوظٍ، رُبَّ

---

[1] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص302.

[2] **ديوان الهذليين**، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965)، ج1، ص3.

[3] مبروك وآخرون، **نظرية الاتصال الأدبي**، ص183.

دائبٍ مضيِّع، وساعٍ لغيره، والموت في أعناقكم، والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لِمَا بين أيديكم، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء، وكل ما ترونه فإنه ذاهب، هذه شمس عاد وثمود قرون كثيرة بين ذلك، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة، وخزائنهم السائرة بين أيديكم، وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم، أين الملوك الأولون؟ أين الجبابرة المتكبرون؟ المحاسب الله، والصراط منصوب، وجهنم تزفر وتتوقد، وأهل الجنة ينعمون في روضة يحبرون، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُما وعميانًا".[1]

ومن مظاهر الواقع الديني للمجتمع المُسلِم الذي شكَّل بنية من بنى النص في خُطَبِ الحجَّاج الوعظية اتِّباع الهوى؛ مما أدَّى بالحجَّاج إلى الاهتمام بمحاسبة النفس أكثر، كقوله: "أيُّها الناس، اقذعوا هذه الأنفس، فإنها أسألُ شيءٍ إذا أُعطيت، وأعصى شيء إذا سُئلت، فرَحِمَ الله امرأ جعل لنفسه خطامَا وزمامًا، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله، فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله"[2].

2. 3. 2. البنية السيكولونصية:

تنتج عن سابقتها السسيونصية؛ إذ إن "المتغيرات النفسية تأتي انعكاسًا للمتغيرات الاجتماعية المختلفة في الواقع الاجتماعي"،[3] فنتيجة لسوء الصورة الدينية الواقعية المتصلة بالمجتمع المُسلِم – أي صورة قلة الأفكار في الأمور الأخروية أو قلة النشاطات والاستعدادات وصالحات الأعمال لمواجهة يوم الحساب – تأثَّر الجانب النفسي للحجَّاج إلى حدٍّ كبير لتشكيل سيكولوجيته بنيةً من بنى النص في خُطَبِهِ؛ إذ يتمثل في إحدى

[1] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص301.

[2] المرجع نفسه.

[3] مبروك وآخرون، **نظرية الاتصال الأدبي**، ص184.

خُطَبِه اضطرابُه النفسي تجاه الاستقامة من خلال ثنائية التضاد بين الهداية والضلال والغي والرشد؛ إذ قال داعيا المولى ﷻ: "اللهم أرني الهدى هُدًى فأتَّبعه، وأرني الغيَّ غيا فأجتنبه، ولا تكلني إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيدًا"،[1] فمن الملاحظ ههنا أن الحالة المضطربة لنفسية الحجَّاج تجاه الواقع الاجتماعي اتضحت أكثر حين تُعكس البنية السيكولونصية على الزمن النفسي[2] الذي يمضيه الحجَّاج؛ إذ يشعر بشيء من الإحباط والإخفاق، وإليه يُشير قوله: "والله ما أُحِبُّ أن ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه، ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء"،[3] فإنه لا يُحِبُّ أن يكون زَمَنُهُ المستقبل كالزمن السابق، بل يحب أن يكون الزمن المستقبل أحلى وأطهر، ومن ثم اتفقت البنية السيكولونصية مع الحالة النفسية للحجَّاج، كما انعكس الحزن والكآبة في الخطبة الآتية من خلال بعض الكلمات، من مثل: الاستغفار، والذنب، والمعاد، والحزن، والأسف، فقد قال: "... إنَّ امرأ أتت عليه ساعة من عُمُرِه لم يذكر فيها رَبَّهُ، ويستغفر رَبَّهُ من ذَنْبِه، ويُفكِّر في معاده؛ لجدير أن يطول عليه حُزْنُهُ، ويتضاعف أسَفُهُ...".[4]

وكذا انكشف حُزْنُهُ وكآبته وزُهْدُهُ نفسيا من خلال ثنائية التضاد بين الفناء والبقاء، وشاهد الدنيا وغائب الآخرة، وطول الأمل وقصر الأجل؛ إذ قال: "... إن الله كَتَبَ على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لِمَا كُتِبَ عليه الفناء، ولا فناء لِمَا كُتِبَ عليه

---

[1] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص303.

[2] الزمن النفسي هو ذلك الزمن الذي يعيشه المرء نفسيا عندما يفكر في الماضي أو في المستقبل باستمرار وينسى الزمن الحاضر، وينبغي أن ينتهي الزمن الحاضر، ويتشكل هذا الزمن عندما يشعر المرء بالإخفاق أو المأساة في الواقع، وهذا الزمن يختلف عن وقت الساعة، فالفرق بينهما أن وقت الساعة يستعمل في المسائل العملية، أما الزمن النفسي فيُستخدم في الأمور الخيالية غير الواقعية.

[Myrko Thum, The clock time vs. psychological time, from: http://www.myrkothum.com/the-difference-of-clock-time-and-psychological-time/, Access date, July 6, 2015.]

[3] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص303.

[4] المرجع نفسه.

البقاء، فلا يغرَّنَّكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل".[1]

وأيضًا يُلحظ الالتفات إلى تتابُع الصور الخطابية المُعبِّرة عن البُعْدِ النفسي من جهة والبُعْدِ النصي من جهة أخرى؛ من خلال المقومات السياقية؛[2] لتشكيل الصورة، فقد أبان عن الجوانب السيكولوجية والنصية في خُطَبِ الحجَّاج الوعظية، وفي الجدول الآتي رقم (1) بعض الأمثلة عن الصور السيكولونصية في هذه الخطب؛ تجعل المسألة أكثر وضوحًا.

الأنموذج الأول	**نعم امرؤ حاسب نفسه** (تذكر+ لمس+ تصور)، **امرؤ راقب ربه** (تذكر+ بصر+ تصور)، **امرؤ زوَّر عمله** (تذكر+ لمس+ تصور)، **امرؤ فكر فيم يقرؤه غدًا في صحيفته** (تذكر+ بصر + لمس + تصور)، **ويراه في ميزانه** (تذكر+ بصر + تصور)، **امرؤ كان عند همِّه آمرًا** (تذكر + سمع + تصور)، **وعند هواه زاجرًا** (تذكر + سمع + تصور)، **امرؤ أخذ بعنان قلبه** (تذكر + لمس + تصور)، **كما يأخذ الرجل بخطام جمله** (تذكر + لمس + تصور)، **فإن قاده إلى حقٍّ تبعه** (تذكر + بصر + لمس + تصور)، **وإن قاده إلى معصية الله كفَّه** (تذكر + بصر + لمس + تصور)، **إننا والله ما خلقنا للفناء** (تذكر+ لمس + تصور)، **وإنما خلقنا للبقاء** (تذكر + لمس + تصور)، **وإنما ننتقل من دار إلى دار** (تذكر + لمس + تصور).
الأنموذج الثاني	**إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره** (تذكر + بصر + تصور)، **لم يذكر فيها ربه** (تذكر سمع + تصور)، **ويستغفر ربه من ذنبه** (تذكر + سمع + تصور)، **ويفكر في معاده** (تذكر + تصور)، **لجدير أن يطول عليه حزنه** (تذكر + بصر + تصور)، **ويتضاعف أسفه** (تذكر + سمع + تصور)، **إن الله كتب**

[1] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص303.

[2] هي الذاكرة والحواس والتخيل؛ يُنظر للتفصيل: مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص116.

على الدنيا الفناء (تذكر + لمس + بصر + تصور)، **وعلى الآخرة البقاء** (تذكر + لمس + بصر + تصور)، **فلا بقاء لما كُتب عليه الفناء** (تذكر + بصر + لمس + تصور)، **ولا فناء لما كُتب عليه البقاء** (تذكر + بصر + لمس + تصور)، **فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة** (تذكر + بصر + تصور)، **واقهروا طول الأمل بقصر الأجل** (تذكر + لمس + بصر + تصور).	

جدول رقم (1) تتابع المقومات السياقية للصورة السيكولونصية

ففي الأنموذج الأول تتراءى للمتلقي صور سيكولونصية تدل على هدوء واطمئنان واستقرار في الحالة النفسية للحجَّاج؛ ربما لأن موضوع الخطبة الوقار والثبات على الحق، ومن ثم يتجلى فيها ثباته النفسي من خلال الصور السابقة كلها؛ حتى ازداد ذلك الثبات في آخر الخطبة، حيث عبَّر عن ديمومة النفس التي تنتقل من دار إلى دار، وعلى هذا النحو، توازنت السيكولوجية والنصية في الخطبة المذكورة من خلال الصور التذكرية والحسية والتخيلية التي هي مقومات سياقية للصورة السيكولونصية، أما في الأنموذج الثاني فيتراءى فيه للمتلقي أن الحزن والكآبة والزهد هي سائدة وغالبة عليه.

3. الوسيلة الاتصالية

الوسيلة الاتصالية أساسًا قناة اتصال من منظور تقني، و"تتكوَّن من مجموع العمليات المادية المتحققة بدءًا من كتابة المؤلف للنص، وانتهاء بفعل القراءة، وتملك القارئ لهذا النص"،[1] فللوسيلة أهمية كبيرة بالنسبة إلى المتلقي؛ إذ قد يختلف أثر الوسيلة في المتلقي باختلاف نوعيتها، وقد ثبت بالتجربة أنه كلما زاد استخدام الحواس في وسيلة الاتصال زاد تأثيرها في المتلقي؛ مثلاً لو كانت وسيلة أحد النصوص تشتغل فيها حواس البصر والسمع واللمس جميعًا؛ لكان تأثيرها أقوى وأكبر من أي وسيلة يقلُّ اشتغال

[1] فريس، إيمانول، **قضايا أدبية عامة؛ آفاق جديدة في نظرية الأدب**، (الكويت: عالم المعرفة، 2000)، ص55.

الحواس فيها نسبيًا.

والوسيلة في نظرية الاتصال الأدبي على نوعين: الوسيلة اللفظية، والوسيلة الكتابية.[1]

أما النص بالنسبة إلى خُطَبِ الحجَّاج الوعظية فقد وصل إلينا مطبوعًا في الجزء الثاني من كتاب "جمهرة خُطَبِ العرب في عصور العربية الزاهية" لأحمد زكي صفوت، وقد صدر هذا الكتاب عن المكتبة العلمية في بيروت سنة 1933، وأسباب اختيار هذا الكتاب وسيلةً اتصالية تتلخص فيما يأتي: (1) أنه يحتوي على النص كاملاً، (2) وأنه يحتوي على شرح الألفاظ الغريبة، (3) وأنه يحتوي على توضيح المعاني المبهمة، (4) وأنه يحتوي على تعاريف الأعلام المذكورين في النص، (5) وأنه يحتوي على أضواء على الأحداث التاريخية المشار إليها في النص، (6) وأنه يحتوي على مراجع النصوص مع ذكر أرقام الأجزاء والصفحات، (7) وأنه سهل المنال، (8) وأنه يساعد المتلقي على فهم النصوص ومعالجتها في يُسْرٍ.

وكذا وصل إلينا نصُّ الخطابة مطبوعًا في كتاب "الحجاج حياته وخطابته" لعلي صافي حسين، أخرجته مطابع الدار القومية في القاهرة، وسنة النشر غير متوفرة، وقد اختير هذا الأخير لتكامل النص الخطابي؛ إذ رغم كون الكتاب الأول أكثر شمولاً وفائدة؛ فيه بعض القصور، فقد ظهرت فيه معانٍ مُعلَّقة غير متكاملة.

وأيضًا وصل إلينا النص مطبوعًا في كتاب "الحجاج بن يوسف الثقفي حياته وآراؤه السياسية" لإحسان صدقي العمد، نشرته دار الثقافة في بيروت سنة 1973، وقد اعتمدنا على هذا الكتاب في اختيار بعض النصوص التي لم تكن في الكتابين السابقين، كما أن هذا الكتاب مُوثَّق تمامًا، وفي هوامشه شَرْحُ الألفاظ الغريبة، وتراجِمُ الأعلام، وما إلى ذلك مما يمتُّ إلى عون القارئ في فَهْمِ النصوص بصلة.

---

[1] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص148.

4. المتلقي وإستراتيجية القراءة

يمكن أن ينقسم هذا المحور إلى أربع نقاط: نوع القارئ، ودور القارئ، وإستراتيجية القراءة، وإستراتيجية الاتصال.

4. 1. نوع القارئ:

للقارئ نوعان: القارئ القصدي، والقارئ الضمني، أولهما يقصده المؤلف ويُوجِّه النص إليه، من مثل من يُقصد بالمدح أو الهجاء، والثاني عكسه؛ إذ لا يقصد المؤلف قارئًا مخصوصًا، بل يُطلق النص لجمهور القراء.

أما خُطَبُ الحجَّاج الوعظية فقرَّاؤها ضمنيون؛ لأن الوعظ والنصيحة في الخطب لا يُقصد بها عادة إلا الجمهور؛ لتعميم فوائدها، وقد اتضح ذلك من خلال السياق التركيبي والصوري والدلالي في نصوص الخطب؛ مثلاً بدأ الحجَّاج بعض خُطَبِه الوعظية بجملة: "أيها الناس"، وأحيانًا بدأ بنكرة، من مثل: "إن امرأ..."، و: "نعم امرؤ...".

4. 2. دور القارئ:

للقارئ في نظرية الاتصال الأدبي خمسة أدوار رئيسة؛ هي: (1) استكشاف المعنى، (2) وملء الفراغات، (3) ورَبْطُ الأجزاء غير المترابطة، (4) وضَبْطُ البنى المتحولة، (5) وتأسيس البنية النهائية.

4. 2. 1. استكشاف المعنى:

أي "كَشْفُ القارئ للمعاني الإيحائية والمتعددة في النص، والتي تنكشف من خلال القراءات والموروث الثقافي للمتلقي"،[1] وعادة ما يستكشف القارئ المعاني الإيحائية والمتعددة من خلال ثلاث خطوات متتالية؛ هي: (1) هيكلية النص، (2) والصورة العقلية والقراءة، (3) والبنية الإبلاغية.

وعلى أي حال لا تحتوي خُطَبُ الحجَّاج الوعظية على نصٍّ مُتعدِّد المعاني؛ لأن

[1] مبروك وآخرون، **نظرية الاتصال الأدبي**، ص189.

الحال كانت تقتضي أن يكون النص واضحًا جليا غير عصيٍّ ولا مغاير؛ بحيث يفهمه المتلقي بمجرد سماعه إياه.

أما هيكلية النص فيقصد بها "النظر إلى النص على أنه هيكل عظمي أو جوانب تخطيطية يقوم القارئ بتحقيقها وتجسيدها"،[1] فكل ما يعنى به هو "أن العمل الأدبي ليس نصا تمامًا، وليس ذاتية القارئ تمامًا، ولكنه يشملهما مجتمعين أو مندمجين".[2]

وأما المرحلة الثانية لاستكشاف المعاني فهي الصورة العقلية والقراءة، وهي لا تعدو أن تكون مفهومة عقلية أو صورة عقلية تتضح في عقل القارئ أو المتلقي بعد أن تلقَّى النص أو قرأه، فالصورة العقلية والقراءة في خُطَبِ الحجاج الوعظية أن الإنسان يُمنح حياة قصيرة وعليه أن يرجع إلى ربِّه بعد حين، فلا يغرَّنَّه شيء من الأمور الدنيوية.

وأما البنية الإبلاغية في خُطَبِ الحجَّاج الوعظية فليست إلا رسالة دينية يريد أن يُرسلها إلى كل مؤمن ومؤمنة، وهي معايشة الحياة بالحيطة والورع والتقوى؛ لابتغاء مرضاة الله ﷻ، وليس ذلك فحسب، بل ينصح ألا يفوت أحدًا وقتٌ بغير ذكر الله ﷻ واستغفاره من الذنوب.

4. 2. 2. ملء الفراغات:

أي إبراز المعنى الضمني إبرازًا صريحًا،[3] أو إظهار ما اختفى من المعنى، وهذا مرتبط في الغالب الأعم بالمعاني الإيحائية، ورغم أن نصوص خُطَبِ الحجَّاج الوعظية ليست من قَبَلِ النص متعدد المعاني؛ هناك شيء من المجالات الفارغة يُمكن للقارئ الفاحص أن يملأها، من مثل قوله: "نِعْمَ امرؤٌ حاسَبَ نَفْسَهُ، امرؤٌ راقَبَ رَبَّهُ، امرؤٌ زوَّرَ عَمَلَهُ، امرؤٌ فَكَّرَ فيما يقرؤه غدًا في صحيفته ويراه في ميزانه، امرؤٌ كان عِنْدَ هَمِّه آمرًا، وعِنْدَ هواهُ زاجرًا، امرؤٌ أخَذَ بعنان قَلْبِه كما يأخذ الرجل بخطام جَمَلِه، فإن قاده إلى حقٍّ تَبِعَهُ، وإن

---

[1] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص181.

[2] هولب، **نظرية التلقي**، ص202-203.

[3] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص183.

قاده إلى معصية الله كَفَّهُ، إنَّنا والله ما خُلقنا للفناء، وإنما خُلقنا للبقاء، وإنما ننتقل من دارٍ إلى دارٍ..."،[1] فهذه الخطبة منقسمة إلى قسمين: مقدمة ومتن، أو مجمل ومفصل.

يبدأ القسم الأول من أولها إلى كلمة (ميزانه)، ثم يبدأ القسم الثاني إلى آخر الخطبة، ففي المقدمة يُلقي الخطيب الضوء على ما يكون بعد المقدمة من الموضوع، وهو البيان عن وسيلة التمسك بحبل التقوى وغايتها الأخروية، فثلاث الجُمَلِ الأُوَلِ بمنزلة الوسيلة، والجملتان الأخيرتان بمنزلة غاية هذه الوسيلة المعيشية؛ أي حسُنت حالُ من حاسب نفسه باستمرار، وتصوَّر أنه يرى ربَّه وربَّه يراه دائمًا؛ لأنه عليم بذات الصدور وخبير بما يعمله ومحيط بكل شيء علمًا، وترتب عليه أن عمل صالحات الأعمال لا لسبب إلا لأنه لا مَفَرَّ له من البعث بعد الموت، ولا خلاص له من أن يرى مثقال ذرة خيرًا عَمِلَهُ ومثقال ذرة شرا ارتكبه، ثم لماذا؟ فهذه الجمل كلها تفيد معنى المدح والتبجيل والتجليل، لكنها لا تحتوي علة ذلك المدح، وهنا تبدأ عملية المتلقي لإكمال تلك الفراغ، لكننا نفعل ذلك بعد الوصول إلى آخر الخطبة.

أما القسم الثاني من الخطبة فليس إلا وصفًا تفصيليًا للمقدمة، ففي هذا المستوى يبدأ الخطيب تفصيل ما سبقه في المقدمة من الومضات، وبيانَ كيفية تطبيق الوسيلة المذكورة آنفًا، وذلك من خلال الطريقة التطبيقية للحفاظ على النفس وأخذ الحيطة والمراقبة هي جهاد الهوى في كل الحركات والسكنات، ثم شبَّه الخطيب تشبيهًا مُرسلاً مُجملاً؛ لتصوير عملية جهاد الهوى، فالمرء الناهي عن هوى النفس كرجل يأخذ بيده خطام جَمَلِه؛ إذا قاده إلى خيرٍ تَبِعَهُ، وإذا قاده إلى شرٍّ مَنَعَهُ، ثم يُعبِّر الحجَّاج عن العلة والغاية التي يعمل لأجله ذلك العمل الشاق، أي لقاء يوم الحساب؛ قال: "إننا والله ما خُلقنا للفناء..."، أي لا بُدَّ لعامل الصالحات من الجزاء، فهو لا يفنى بوفاته، بل ليس هذا الموت إلا انتقالاً من مرحلة إلى أخرى من الحياة؛ لينال المثوبة والجزاء، والخطيب هنا

[1] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص302.

لم يُعبِّر صراحة عن نيل المثوبة والجزاء يوم القيامة، لا لسبب إلا ليُكثِّف رغبات المتلقي في المثوبة، فكأن الكلمات لا تفي بذكرها، كما يتمثل هذا البُعْدُ البلاغي في الآية القرآنية عند حَذْف جزاء الشرط في شأن مثوبة أهل الجنة، وهي قوله ﷻ: ﴿**وسِيقَ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّة زُمَرًا حَتَّى إذَا جَاؤُوهَا وفُتِحَتْ أبْوَابُهَا وقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ (الزمر: 73)، فحَذْفُ جواب الشرط في الآية لعظمة المشهد، ولتذهب النفس في تصوُّره كُلَّ مذهب، أو لأن الوصف لا تُؤدِّيه الكلمات، ومعناه المُقدَّر أنهم حتى إذا كانت هذه الأشياء صاروا إلى السعادة.[1]

بالإضافة إلى أن القارئ الفاحص يحسُّ في هذه الخطبة معنى الشرط والجزاء ضمنيًا، فكأن الخطيب يحاول أن يُعبِّر عمن حسُنت معيشة أحد إذا عاش حياة التقوى ليلقى ربَّه يوم الحساب بنظر الرضا.

وعلى هذا النحو كثَّف الحجَّاج في هذه الخطبة أشواق المتلقِّين ورغباتهم في نيل السعادة القصوى، وهي مرضاة الله ﷻ والجنة يوم القيامة، في صورة لم يُصرِّح فيها بالمثوبة والأجر الحسن، بل علَّق المعنى لتعظيم المشهد وتجليله، لكن هذا المعنى المضمون إنما يظهر إذا وضع القارئ يده القادرة عل فضِّ مغاليق نصِّها.

4. 2. 3. ربط الأجزاء غير المترابطة:

أي قيام القارئ بربط المعاني الدلالية والشعورية، "فقد يكون النص غير مترابط على مستوى التركيب اللغوي المألوف كتركيب الأفعال والأسماء والحروف وفق سياقاتها المألوفة في التراكيب الإسنادية الاسمية والفعلية، لكنه مترابط على المستوى الفني والشعوري"،[2] فمن هذه الناحية يمكن القول إن خُطَبَ الحجَّاج الوعظية مترابطٌ نصُّها تمامًا وفق

---

[1] الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، (القاهرة: دار الحديث، د. ط، 2004)، ج4، ص274. [نقلاً عن: محمد، يونس حمش خلف، "الحذف في اللغة العربية"، **مجلة أبحاث الكلية التربية الأساسية**، 2010، المجلد 10، العدد 2، ص282.]

[2] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص184ـ85.

التركيب العربي المألوف، مما جعل البُعْدَ الدلالي مترابطًا؛ إذ إن الأبعاد الدلالي والشعوري والنفسي متوقفة على الترابط اللغوي والأسلوبي، ثم إن الذكر والحذف والإيجاز في بعض الخطب جاء بالمفهوم التقليدي لتركيب الجمل العربية،[1] كقوله: "أيُّها الناس، قد أصبحتم في أجلٍ منقوص، وعَمَلٍ محفوظ، رُبَّ دائبٍ مضيع وساعٍ لغيره..."،[2] ففي بداية هذه الخطبة أتى الحجَّاج بأسلوب الحذف لقرائن مجودة، فالأصل أن يقول: "أصبحتم في أجل منقوص، و(أصبحتم في) عمل محفوظ، ورُبَّ دائب مضيع، و(رُبَّ دائب) ساعٍ لغيره..."؛ إلا أن هذا الحذف والإيجاز لا يجعل المعنى غير مترابط، بل العكس هو الصحيح.

4. 2. 4. ضبط البنى المتحولة:

أي قيام القارئ "بضبط البنى اللغوية والسياقية التي تتحول عن دلالاتها النصية، فقد يكون المعنى اللغوي للبنية معبراً عن الدلالة المعجمية، ولكنه في سياق النص يعبر عن الدلالة الإيحائية والرمزية"،[3] من مثل قول الحجَّاج في بعض خُطَبِه: "... هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة..."،[4] ففي هذه القطعة من الخطبة كلمة (شمس)، وهي في أول وهلة تبدو أنها تفيد المعنى المعجمي، لكن البنية التركيبية لها تُعبِّر عن معنى الزمن والدهر، وكذا كلمتا (خطام) و(زمام) في قوله: "... فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطامًا وزمامًا، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله..."،[5] تُعبِّران في ضوء السياق عن معنى الصبر والاستقامة على الدين، لا عن المعنى المعجمي، وأيضًا كلمة (عمامة) في قوله:

---

[1] المرجع نفسه، ص184-85.

[2] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص301.

[3] مبروك، **نظرية الاتصال الأدبي**، ص193.

[4] صفوت، **جمهرة خطب العرب**، ج2، ص301.

[5] المرجع نفسه.

"والله ما أُحبُّ أن ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه..."،[1] فالبنية التركيبية لهذه الكلمة تُعبِّر عن معنى الفقه والعلم والسلطة، لا ما يُلفُّ على الرأس من ثوب طويل.

4. 2. 5. تأسيس البنية النهائية:

أي ما تتأسس "من الفارغات البنائية التي تم ملئها، والأجزاء التركيبية التي تم ربطها، والبنى المتحولة التي تم ضبطها"،[2] وهذه كلها تُشارك في تشكيل البنية النهائية للنص، والتي تتمحور حول تنبيه الناس على قصر الحياة في الدنيا والبعث والحساب في الآخرة، فينبغي للناس أن يعيشوا عيشة الحيطة والتقوى متجنبين الهوى ومتنكبين الغي والضلال، آملين الأجر والمثوبة عند ربهم يوم الحساب، فلا يفوتنَّ عليهم ساعة بغير ذكر الله ﷻ.

4. 3. إستراتيجية القراءة:

أي "الآلية التي يتم من خلالها قراءة النص"،[3] وهذه الآلية تتألف من عدة أبعاد؛ هي: البعد الذاتي، والبعد الصوري، والبعد الباطني، والبعد الجدلي، والبعد الوظيفي.

4. 3. 1. البُعْدُ الذاتي:

أي "تعميق الوعي الذاتي من خلال انفصال الذات عن ذاتها أثناء عملية القراءة الإستراتيجية للنص"،[4] وهذا الانفصال الذاتي يحدث خاصة عندما يتعرض القارئ لتجربة غريبة لم تمر عليه من قبل، ويمكن أن يتسم البعد الذاتي بالسمات الآتية: (1) حدوث الانشطار بين ذات القارئ وذاته، (2) واستكشاف عالم باطني في النص بفعل انشطار الذات، (3) ومطالعة النص بمعزل عن ذوات الآخرين، (4) ومطالعة النص بمعزل عن أي مؤثرات أخرى خارجية، (5) ومطالعة النص مع تنحية تجارب القارئ الخاصة،

---

[1] المرجع نفسه.

[2] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص186.

[3] المرجع نفسه، ص186.

[4] المرجع نفسه، ص187.

(6) وأن يتعامل مع النص تعاملاً حياديًا،[1] فإذا طُبِّق هذا البُعْد على نصِّ خُطَبِ الحجَّاج الوعظية وفق إستراتيجية القراءة؛ يتراءى للقارئ أنه نصٌّ عادي؛ لأنه نصٌّ وعظي مُوجَّه إلى الناس حول التقوى، وعادة ما يقف مثل هذه القراءة عند حدِّ الوصف والرصد والتسجيل للنصوص لا غير.[2]

ومهما يكن من أمر يُشكل البُعد الذاتي للخطيب محورًا من محاور خُطَبِه؛ إذ جاء بعض النصوص الخطابية يناجي فيها الخطيب ربَّه حول ذاته مستلهمًا الهداية.

4. 3. 2. البُعْدُ الصوري:

يأتي في المرتبة الثانية من إستراتيجية القراءة، "ويُعنى به التصور الذي يتشكل في وعي القارئ أثناء القراءة، وهو ركن أساسي في الخيال الإبداعي الذي ينتج في النهاية الموضوع الجمالي"،[3] فالبُعْدُ الصوري المتكامل لنصِّ خُطَبِ الحجَّاج الوعظية هو تنبيه الغافلين على فوت الوقت القصير الثمين في الدنيا وحثِّهم على صالحات الأعمال قبل فوات الأوان، وأهم شيء للمعيشة الدنيوية هو كَبْحُ جماح الهوى وطَلَبُ الهدى والاستقامة من المولى ﷻ؛ إلا أن هذا البُعْدَ الصوري المتكامل لنصِّ الخطب في وعي القارئ يتمثل في طريقتين: (1) صور جزئية، (2) وصور تشبه الوحدة العضوية، وفي خُطَبِ الحجَّاج الوعظية تأتي الصورة مقطوعة غير متكاملة، فإن قدَّم جملة على أخرى لا يحدث خَلَلٌ في المعنى.

كما يمتثل البُعْدُ الصوري في الوحدة العضوية أحيانًا إذا اعتمدت الصورة على السردية الحكائية، كقوله: "إن الله خَلَقَ آدم وذرِّيَّته من الأرض، فأمشاهم على ظهرها، فأكلوا ثمارها، وشربوا أنهارها، وهيؤوا لها المساحي والمرور، ثم أدال الله منهم، فردَّهم إليها، فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها، وقطعت

---

[1] المرجع نفسه.

[2] مبروك، **نظرية الاتصال الأدبي**، ص194.

[3] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص190.

في جوفها ومزقت أوصالهم كما مزقوها بمساحيهم ومرورهم"،[1] ففي هذه القطعة الخطابية تأتي الصورة وحدةً عضويةً؛ إذ إن كل جملة فيها تُسهم في تشكيل صورة كاملة كأنها سرد حكائي.

4. 3. 3. البُعْدُ الباطني:

أي "استكشاف بنية النص الباطنية من خلال فهم القارئ للنص"،[2] ففي نصوص خُطَبِ الحجَّاج الوعظية يتمثل البعد الباطني في محاولته إحياء وعي المُسلِم حول ديمومة الحياة الآخرة وقِصَرِ الحياة الدنيا، كما يتمثل ذلك في مساعيه لإحياء روح التقوى وجهاد الهوى، ومن الطبيعي أن مجتمعًا ما إذا تزين بزينة التقوى قلَّت نزعاته في أمور تتصل بالفتنة، وعندئذ استقر الأمن والسلام في المجتمع، ومن ثم في الدولة، وبما أن الحجَّاج كان حاكم العراق، وكان أهل العراق أهل الشقاق والنفاق، فقد حسُنت خُطَبُهُ الوعظية التي وافقت المقام، ولاءمت الظروف والملابسات حينئذ.

4. 3. 4. البُعْدُ الجدلي:

أي جدلية التوقع والذاكرة أو وجهة النظر الجوالة، ويتمثل عندما يتعرَّض القارئ في أثناء القراءة لشيء غير مُتوقَّع في النص،[3] ويجدر هنا بالذكر ما قاله آيزر في توضيح مفهوم البعد الجدلي: "عندما نقرأ نصا نُمِّيَ على نحو متصل في تقويم الأحداث وإدراكها وفقًا لتوقعاتنا المستقبلية وعلى أساس من خلفية الماضي، ولذلك فإن حدوث شيء غير متوقع من شأنه أن يجعلنا نعيد صياغة توقُّعاتنا وفقا لهذا الحدث، ونعيد تفسير المعنى الذي نسبناه إلى ما سبق وقوعه، وعلى هذا فإن وجهة النظر الجوالة تتيح للقارئ أن يسافر عبر النص، كاشفًا بذلك كثرة المنظورات التي يترابط بعضها مع بعض، والتي تعدل

---

[1] العمد، **الحجاج بن يوسف**، ص506.

[2] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص191.

[3] مبروك وآخرون، **نظرية الاتصال الأدبي**، ص197.

كلما حدث انتقال من واحد منها إلى الآخر".[1]

أما فيما يخص خُطَبَ الحجَّاج الوعظية فيتوقع القارئ اعتمادًا على أُفُقِ التوقع والذاكرة، وتوقُّفًا على سيرة الحجاج وسلطته؛ أن يكون النص سطحيًا لا يتشبث بالعاطفة والوجدان، لكن القارئ يحس بعمق عاطفته وجدانه، وهذا ما أكَّده مالك بن دينار، بالإضافة إلى أن القارئ لا يتوقع في خُطَبِ الحجاج الوعظية أن يتعرَّض لحِكَمٍ غير مسبوقة لا تتأتَّى في أحد إلا من طول التجربة وعمق الخبرة فيما يتعلق بالدين؛ لأن هذه الحِكَمَ مرتبطة بالزهد والتصوف، فكأن الحجَّاج يصعد هنا إلى مقام الشيخ الصوفي الكبير الذي لا يتحدث عن تجاربه الزهدية إلا بعد طول الخبرة في هذا الميدان.

4. 3. 5. البعد الوظيفي:

يتمثل في جعل المألوف غريبًا، وهذا يكون من خلال أمرين: الصدارة والخلفية، والموضوع والأفق.

أما الصدارة فيُعنى بها رؤية النص في ذاته بغض النظر عن السياق، وأما الخلفية فيعنى بها رؤية النص في إطار السياق العام،[2] فإذا طُبِّقت الصدارة على الخُطَب بدا للقارئ في أول وهلة أنها موجهة إلى المجتمع الإسلامي، وأنها تحث المسلمين على فعل الخيرات قبل فوات الأوان، ولكن إذا واصل القارئ قراءة جميع خطبه الوعظية مطبقًا عليها رؤية الخلفية، يظهر له أن الحجاج يحاول أن يحيي روح التقوى والزهد في نفسه ويصلح ذاته في المقام الأول.

أما الموضوع والأفق فيُقصد بهما ما يتضمنانه من الاختيار من المنظورات المتعددة لنص ما،[3] وفي إمكان القارئ أن يختار منظورًا ما ليصل إلى الأفق النهائي؛ رغم أن القارئ الواحد يصعب عليه أن يُحدِّد الأفق النهائي؛ إذ إن النص الأدبي يحتوي على

---

[1] هولب، **نظرية التلقي**، ص215.

[2] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص193.

[3] هولب، **نظرية التلقي**، ص212.

آفاق عدة، ولو اختير الموضوع الصوري لخُطَبِ الحجَّاج الوعظية لتراءى أن الخطيب وفق هذا الموضوع يصل إلى الأفق النهائي الذي يتمثل إما في نيل المثوبة يوم الحساب بما فعله العباد من صالحات الأعمال، وإما في مواجه العقوبة بما فعله من شر الأعمال اتباعا الهوى.

4. 4. إستراتيجية الاتصال:

أي عملية التواصل التي تتم بين النص والقارئ، وتنقسم البنية الاتصالية إلى قسمين: الاتصال المتعادل بين النص والقارئ، والاتصال المنحرف بين النص والقارئ.[1]

4. 4. 1. الاتصال المتعادل:

أي توافق الرؤية بين النص والقارئ، فإذا توافقت رؤية النص المعينة مع رؤية القارئ يطلق على ذلك التوافق (الاتصال المتعادل)، وهذا يحتاج إلى توافق الرؤية الفكرية والأداة في النص؛ أي إذا توافقت الرؤية الفكرية والأداة التعبيرية في النص، وكل منهما يتوافق مع رؤية القارئ ليكون الاتصال بينهما متعادلاً، وهذا مشابه "المعادل الموضوعي" الذي طرحه ت. س. إليوت؛ إذ تُحْدِثُ الحالة الشعورية والدلالية المطروحة في النص تأثيراً متعادلاً في المتلقي بالرؤية نفسها التي طرحها النص.[2]

فمن ناحية الاتصال المتعادل يمكن القول إن خُطَبَ الحجَّاج الوعظية كلها يتوقف على الاتصال المتعادل؛ لأن حالات الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والحسرة والاضطراب النفسي والتوكل على الله ﷻ والتبتل إليه – كلّ ما طرحه النص الخطابي – يشعر به القارئ ويتفاعل معه تفاعلاً يقترب من الحالات الشعورية للخطيب ذاته.

4. 4. 2. الاتصال المنحرف:

أي "عدم توافق الرؤية بين النص والمتلقي"،[3] عندئذ يُقدِّم المتلقي تأويلاً للنص وفق

---

[1] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص196.

[2] المرجع نفسه.

[3] المرجع نفسه، ص197.

رؤيته التي ربما لا تكون بالضرورة متوافقة مع الرؤية التي يطرحها النص، وقد يحدث الاتصال المنحرف من الأسباب الآتية: (1) عدم إدراك القارئ مفهوم النص وسبر أغواره، وهذا يحدث إما لثقافة المتلقي وإما لطريقة معالجته النص وإما لطريقة تشكيل النص ذاته من قبل المبدع، (2) وانعدام وجود معايير دقيقة تضبط العلاقة بني النص والقارئ، (3) وكون النص متعدد المعاني، وغير ذلك، وعلى أي حال لا ينطبق الاتصال المنحرف على نصوص خُطَبِ الحجَّاج الوعظية؛ لأنها واضحة الدلالة مكشوفة المعنى.

5. الارتداد العكسي (التأثير وردُّ الفعل)

الارتداد العكسي آخر محور لمعالجة النص في نظرية الاتصال الأدبي، وهو رَدُّ فِعْلِ النص على وعي القارئ أو المتلقي، ويُقصد به النص الذي ينتجه القارئ أو المتلقي للنص عند ما يقرأ نصا أدبيا بعينه، ويُنتج بَعْدَ القراءة نصا آخر نتيجة تأثُّره بالنص المقروء، ففي هذه المرحلة يتحول القارئ أو المتلقي مُبدعًا نصا جديدًا، وقد يكون هذا النص الجديد عكسيًا أو توافقيًا مع النص الذي قرأه أولاً، ومهما يكن من أمر فإن النص الجديد لا يعدو أن يكون نصا ارتداديًّا عكسيًا؛ إذ إنه جاء رَدَّ فِعْلٍ على نصٍّ مقروء.[1]

وينقسم الارتداد العكسي إلى قسمين: الارتداد العكسي المباشر، والارتداد العكسي غير المباشر.

أما الارتداد العكسي المباشر فينتج عندما يكون النص الذي أنتجه المبدع أو المؤلف نصا مباشرًا مبنيا على الإفصاح والإبانة والوضوح؛ أي حين يقتصر المتلقي على المعنى الظاهر من النص، ولا يستدل به على معنى هو معناه، يقف به التلقي هنا عند الارتداد العكسي المباشر،[2] ومن هذه الناحية نصوص خُطَبِ الحجَّاج الوعظية تُحدث في القارئ أو المتلقي ارتدادًا عكسيًا مباشرًا؛ لأن خُطَبَهُ الوعظية اعتمدت على الإفصاح والإبانة

---

[1] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص200.

[2] المحديني، رحمة بنت هاشم عبيد، **جماليات التلقي في قصيدة الحرب**، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، جدة (2009)، ص196.

والوضوح.

أما الارتداد العكسي غير المباشر "فينتج عندما يتأثر القارئ أو المتلقي بنص أدبي ثريٍّ متعدد الدلالات"،[1] وهذا لا ينطبق على نصوص خُطَبِ الحجَّاج الوعظية.

الخاتمة: نتائج البحث

في ضوء ما سَبَقَ نخلص إلى أن خُطب الحجَّاج الوعظية:

1. تمثَّلت فيها الرؤية التكوينية للحجَّاج الثقفي اجتماعيًا وثقافيًا ودينيًا.
2. غنية بالتناص مع القرآن والحديث وآثار الصحابة والشعر العربي.
3. فيها العلاقة وطيدة بين البنية النصية والبنية الواقعية الاجتماعية.
4. فيها العلاقة وثيقة بين البنية النصية والبنية النفسية للخطيب.
5. فيها صورٌ تذكرية وحسية وتخيلية.
6. قُرَّاؤها ضمنيون.
7. تتألف من الوحدة الجزئية والوحدة العضوية جميعًا.
8. مليئة بالعاطفة الصادقة والروحية الدينية الخالصة.
9. تحتوي على حِكَمٍ غريبة لم يتوقَّعها القارئ من قبل.
10. ينتهي فيها الموضوع الصوري إلى نيل المثوبة أو العقوبة يوم الحساب.
11. تتوافق فيها الرؤية التفكيرية والأداة التعبيرية مع رؤية المتلقي تمامًا.
12. تُنتج في وعي القارئ الارتداد العكسي المباشر.

المراجع:

References:

AbË ×ayyÉn, al-BaÎÉôir wa al-DhakhÉôir, ed. Widad al-Qadhi (Beirut: DÉr al-ØÉdir, no date).

[1] مبروك، **من صوت الذات إلى سلطة النص**، ص201.

Al-×Ékim, AbË ÑAbd AllÉh, Al-Mustadrak ÑalÉ al-ØahÊÍayn (Cairo: DÉr al-×aramayn, 1st edition, 1417/1997).

Al-Amad, Ihsan Sidqi, al-×ajjÉj ibn YËsuf al-ThaqafÊ: ×ayÉtuhË wa ÓrÉÙuhË al-SiyÉsiyyah (Beirut: DÉr al-ThaqÉfah, 1973).

Al-BalÉdhurÊ, AÍmad ibn YaÍyÉ ibn JÉbir, KitÉb Jumalin min AnsÉb al-AshrÉf, ed. Suhayl Zakkar wa Ridha al-Zurki (Beirut: DÉr al-Fikr, 1996).

Al-Fakhuri, Hanna, TÉrÊkh al-Adab al-ÑArabÊ (Beirut: al-Maktabah al-BËlisiyyah, no date).

Al-Majlis al-AÑlÉ li RiÑÉyat al-Adab wa al-ÑUlËm al-IjtimÉÑiyyah, DÊwan al-×udhaliyyin (Cairo: Al-DÉr al-Qawmiyyah, 19165).

Al-Mubarrid, AbË al-ÑAbbÉs MuÍammad ibn YazÊd, al-KÉmil fi al-Lughah wa al-Adab (Cairo: DÉr al-Fikr, 3rd edition, 1997).

Al-Muhaydinê, Rahmah binti Hashim Ubayd, JamÉliyyÉt al-TalaqqÊ fÊ QaÎÊdat al-×arb, master thesis, King Abdul Aziz University, 2009.

Al-ZajjÉj, MaÑÉnÊ al-QurÙÉn wa IÑrÉbuhË (Cairo: DÉr al-×adÊth, 2004).

Al-Zirakli, Khairudin, MÉ Raytu wa MÉ SamiÑtu (Cairo: al-MaÏbaÑah al-ÑArabiyyah wa MaktabatuhÉ, 1923).

Dhaif, Shauqi, al-Fann wa MadhhabuhË fi al-Nathr al-ÑArabÊ (Cairo: DÉr al-MaÑÉrif, 9th edition, 1974).

Faris, Emanuel, QaÌÉyÉ Adabiyyah ÑÓmmah: ÓfÉq JadÊdah fÊ NaÐariyyat al-Adab (Kuwait: ÑÓlam al-MaÑrifah, 2000).

http://www.myrkothum.com/the-difference-of-clock-time-and-psychological-time/, Access date, July 6, 2015.]

Husayn, Ali Safi, Al-×ajjÉj: ×ayÉtuhË wa KhiÏÉbuhË (Cairo: Al-DÉr al-Qawmiyyah, no date).

Ibn AbÊ al-×adÊd, ÑIzz al-DÊn ÑAbd al-×amÊd, SharÍ Nahj al-BalÉghah, ed. Muhammad Ibrahim (Baghdad: DÉr al-KitÉb al-ÑArabÊ, 20017).

Ibn al-JawzÊ, AbË al-Faraj, MukhtaÎar Øifat al-Øafwah, ed. Isamudin Sayyid al-Sabiti (Cairo: DÉr al-×adÊth, 1992).

Ibn BadrÉn, TahdhÊb TÉrÊkh Ibn ÑAsÉkir (Damascus: al-Maktabah al-ÑArabiyyah, 1991).

Ibn KathÊr, AbË al-FidÉÙÑ ImÉd al-DÊn IsmÉÑÊl, al-BidÉyah wa al-NihÉyah, ed. Riyadh Abdul Hamid Murad (Beirut: DÉr Ibn KathÊr, 2nd edition, 2010).

Ibn KhaldËn, ÑAbd al-RaÍmÉn, KitÉb al-ÑIbar wa DÊwÉn al-MubtadaÙ wa al-Khabar fÊ TÉrikh al-ÑArab wa al-ÑAjam wa al-Barbar wa Man ÑÓÎarahum min Dhawê al-SulÏÉn al-Akbar, ed. Khalil Shahadah wa Suhail Zakkar (Beirut: DÉr al-Fikr, 2001).

Ibn MaÍmËd, AbË ÑAbd al-RaÍmÉn Jamal ibn Muhammad, al-HajjÉj ibn YËsuf al-ThaqafÊ: MÉ LahË wa MÉ Ñalayhi, ed. Ali Ahmad Abdul Al al-Tahtawi (Beirut: DÉr al-Kutub al-ÑIlmiyyah, 2004).

Ibn ÑAbd Rabbih, AÍmad ibn MuÍammad al-AndalusÊ, al-ÑIqd al-FarÊd, ed. Mufid Muhammad Qamihah (Beirut: DÉr al-Kutub al-ÑIlmiyyah, 1983).

Ibn NabÉtah, JamÉl al-DÊn, SarÍ al-ÑUyËn fi SharÍ RisÉlat Ibn ZaidËn, ed. Muhammad Abu al-Fadhal (Beirut: DÉr al-Fikr al-ÑArabÊ, 1964).

Mabruk, Murad Abdul Rahman, and Abadullah, Ridwan Manisi, and Dabab, Mandhur Muhsin, NaÐariyyat al-IttiÎÉl al-AdabÊ bayna al-TanÐÊr wa al-TaÏbiq (Jeddah: Markaz al-Nashr al-ÑIlmÊ, King Abdul Aziz University, 2013).

Mabruk, Murad Abdul Rahman, Min Øawt al-DhÉt ilÉ SulÏat al-NaÎÎ: QirÉÙat fÊ ShiÑr ÑAbd YaghËth al-×ÉrithÊ fi ÖawÙ NaÐariyyat al-IttiÎÉl al-AdabÊ (Najran: NÉdÊ NajrÉn al-AdabÊ al-ThaqafÊ, 2013).

Muhammad, Yunus Himsh Khalaf, "Al-×adhf fÊ al-Lughah al-ÑArabiyyah", Majallat AbÍÉth Kulliyyah al-Tarbiyah al-AsÉsiyyah, 2010, vol. 10, Issue no. 2.

Safwat, Ahmad Zaki, Jamharat Khutab al-ÑArab fÊ ÑUÎËr al-ÑArabiyyah al-ZÉhirah (Beirut: al-Maktabah al-ÑIlmiyyah, no date).